الهدف الأسمى

متى صلَّيتم فقولوا...

ليأتِ ملكوتك.

هَا أَيَّامٌ تَأْتِي يَقُولُ الرَّبُّ وَأُقِيمُ

لِدَاوُدَ غُصْنَ بِرٍّ فَيَمْلِكُ مَلِكٌ

وَيَنْجَحُ وَيُجْرِي حَقًّا وَعَدْلاً فِي الأَرْضِ

(إرميا ٢٣:٥).

ما أعظمه امتياز أن نصرخ إلى الرب قائلين: "ليأتِ ملكوتك"، ففي هذه الطلبة نحن نشترك في خطَّة الله السرمدية، إذ إنَّنا نعلم أنَّ للرب مخطَّطًا وسينفِّذه. والحقيقة المفرحة في ذلك هي أنه يريد أن يجعلنا جزءًا من هذه الخطَّة، فتكون صلواتنا عاملاً فعَّالاً بالنسبة إلى مجيئه، وذلك بحسب إرادته الحكيمة.

كما أنه يعطينا تأكيدًا على أنَّ صلواتنا ستُنفَّذ وستُستجاب، إذ إنها في فكر الله ومشيئته.

فلا نُضيِّع الوقت، ولا نهدره بصلوات تغرِّد خارج السرب الكتابي المعلَن، إذ لا فائدة منها.

أجل، كيف يمكن للمؤمن أن يصلِّي صلاة غير كتابية؟!

هذا غير معقول وغير مقبول، لأنه قد أُعطي لنا أن نعرف أسرار ملكوت السموات أمَّا لأولائك فلم يُعط، فمَن يملك البوصلة والخريطة لا يمكن أن يضلَّ، فكم بالحري نحن الذين معنا صاحب الأرض وسيِّدها؟!

"ليأتِ ملكوتك" تحمل في طيَّاتها حقائق، لم ولن يفهمها جميع الناس. هاتان الكلمتان تؤكِّدان وجود ملكوت، وملك، وقد اختبرنا نحن، المخلَّصين، ملْكه على حياتنا، وقدرته إذ نقلنا من الظلمة إلى ملكوت نوره العجيب.

في المقابلة الشهيرة بين بيلاطس والرب يسوع في إنجيل يوحنا، الاصحاح ١٨، تتَّضح لنا بعض الحقائق حول هذا الملكوت.

أعلن الرب لبيلاطس أنَّ مملكته ليست من هذا العالم، وليس كما يعتقد البعض بأنها ستتحقَّق عندما يحبُّ الإنسان أخاه الإنسان وعندما يعم الخير والسلام أرضنا الزائلة هذه.

ونحن، في حديثنا هذا، لا نقصد المُلك الألفي ومفهومنا عنه أكان حالة خاصة مستقبلية أم لا، لكن ما عنيناه هو التأكيد على وجود ملكوت روحي في كِلا الحالتين، فهذه الحقيقة واضحة ولا يمكن تأويلها.

أيَّة مملكة أو حتى أي ملك مهما كان عظيم الشأن والجاه، إن لم يكن له رعايا وأتباع، فلا قيمة جوهرية له، لكن الرب يسوع يُعلن لنا حقيقة قيِّمة وهي أنَّ لهذا الملكوت خدَّام، "أَجَابَ يَسُوعُ: «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ. لَوْ كَانَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هَذَا الْعَالَمِ لَكَانَ خُدَّامِي يُجَاهِدُونَ لِكَيْ لاَ أُسَلَّمَ إِلَى الْيَهُودِ. وَلَكِنِ الآنَ لَيْسَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هُنَا»" (يوحنا ١٨:٣٦).

للربِّ أتباع يقتفون خطاه، وما هؤلاء إلاَّ المؤمنون المخَلَّصون بدمه.

فلا يغب عن ذهنك أيها المؤمن، بأنك تابع لملكوت سماوي أبدي، ولا تدَع أمور الحياة ومشاكلها تلهي فكرك عن ذلك. هذا الملكوت ثابت لا يتزعزع مثبَّت منذ القِدَم، ومَلِكُهُ هو السَّيد القادر على كل شيء، ومهمَّتنا نحن تبدأ في معرفة مشيئة الله المعلَنة في كلمته، والصلاة لتتم هذه المشيئة قائلين "ليأتِ ملكوتك". والعمل لنشر بشارة الملكوت هذه وإطاعة المأمورية العظمى، "فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (متى ١٩:٢٨)، "لَكِنَّكُمْ سَتَنَالُونَ قُوَّةً مَتَى حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْكُمْ وَتَكُونُونَ لِي شُهُودًا فِي أُورُشَلِيمَ وَفِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ وَالسَّامِرَةِ وَإِلَى أَقْصَى الأَرْضِ" (أعمال الرسل ١:٨).

في عمق هذه الطلبة حقائق كتابية أرادنا المسيح أن نتيقَّن منها، وهي:

أوَّلاً: ضرورة توجيه أنظارنا إلى الأعالي

هذا أمر لا بدَّ منه، لأنه حاجة ماسَّة بالنسبة إلينا، ولأنه أمر من الرب لنا. وإذا أردنا تبرير هذه الضرورة، فيكون ذلك لسببين أساسيين:

أ. لأننا نحن من هناك

نحن أبناء الملكوت السماوي، كما أنَّ أبانا هو سماوي، وهو يريدنا أن نوجِّه أنظارنا إلى السماء إلى فوق، فنكون ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمِّله. ولأننا من فوق، فطلبتنا يجب أن تنحصر في السمويات، وعندما نصلِّي هذه الصلاة تكون أفكارنا منحصرة بما هو لله وبملكوته، بأصلنا ومرجعنا النهائي.

قد تظن أيها المؤمن أنَّ هذه الطلبة يسهل تنفيذها، لكن الواقع مغاير لذلك. كثيرًا ما نلتهي بانتماءاتنا وهويَّتنا وعرقنا وطائفتنا متناسين أننا لسنا من هذا العالم، متغافلين عن أهمية أن نرفع رؤوسنا إلى فوق لكي ننظر إلى جمال الرب ونتفرَّس في هيكله.

فلا ننسى حقيقة الفرق بيننا وبين أبناء هذه الأرض. فالإصحاح الثالث والعدد التاسع عشر من رسالة فيلبي يصفهم بأنهم يفتكرون في الأرضيات، وأمَّا نحن فسيرتنا هي في السماويات.

إنَّ التمايز كبير بين القمح والزوان، فمع أنهما يتشابهان كثيرًا، ورغم أنهما مزروعان ومتروكان بجانب بعضهما، فإنهما لم ولن يكونا لمرَّة واحدة متساويين أو متَّحدين.

ب. لأنه من هناك يأتي خلاصنا

فمن هناك من السماء ظهرت نعمة المسيح الفائقة، وحرَّرتنا من سلطان الظلمة وإبليس ومن عبودية الخطية، والأمر لم ينتهِ عند هذا الحد، فالملكوت السماوي نفسه يعيننا على هذه الأرض في محاربة الجسد الفاني وفساد الأرض والأشرار والأمراض والضيقات والأوجاع، لأنَّ ترسنا وخلاصنا هو الرب، فعليه نتَّكل لأنه يعتني بنا، وهو يترأَّف على خائفيه كما الأب على بنيه.

فيا معشر المؤمنين لنرفع رؤوسنا إلى فوق لأنَّ من هناك يأتي عوننا وخلاصنا.

ثانيًا: ضرورة العمل لأجل هذا الملكوت

إذا كنَّا أبناء الملكوت والملك، فماذا نحن فاعلون لأجله؟ يعلم الجميع أنَّ الكثير من القادة يجمعون رعاياهم في مظاهرات أو حملات تعبئة يحثّوهم على التجنُّد والاستماتة في سبيل قضية ما. كذلك يقول الرب لنا، قفوا وقولوا، "ليأتِ ملكوتك". عندما نُنفِّذ الأمر ونربط ذلك بما قاله يوحنا المعمدان: "توبوا، لأنه قد اقترب ملكوت السماوات" (متّى ٣:٢)، وبما قاله يسوع،

"قَدْ كَمَلَ الزَّمَانُ وَاقْتَرَبَ مَلَكُوتُ اللَّهِ فَتُوبُوا وَآمِنُوا بِالإِنْجِيلِ" (مرقس ١:١٥)، وهو يطوف في القرى والمدن يعلِّم ويكرز ببشارة الملكوت، ندرك حينئذٍ ماهية مهمَّتنا. فالترابط واضح بين الكرازة بالمسيح ونهاية الأزمنة، وبين البشارة ومجيء الملكوت، ويظهر ذلك بشكل جلي في إنجيل متى حيث أنَّ قبل نهاية الأيام، "يُكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم. ثم يأتي المنتهى" (متى ٢٤:١٤). فلمَّا نتلو هذه الصلاة، نتذكَّر ماهيَّة مأموريتنا، ونشعر بتقصيرنا.

لكن الخطورة في أيامنا هذه لا تكمن فقط في البرودة الروحية من جهة الكرازة، بل تتعدَّى ذلك إلى أمور أعمق وأشدّ خطرًا، إذ يتعلَّق الموضوع بالولاء. فرغم أنَّ الكتاب صارم وواضح تجاه مهامنا الروحية، يتغافل الكثيرون عن ذلك ويعطون وقتهم وولائهم لمملكة أخرى ولقضية أُخرى.

حذارِ من ذلك، لننتبه أن لا يكون مصيرنا مثل أولئك الذين تكلَّم عنهم يسوع، "إنَّ ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمَّة تعمل أثماره" (متى ٢١:٤٣). لا نظنَّنَّ أنَّ أحدًا قادر على الاستمرار في هذه الطريق من دون تحمُّل النتائج. هناك كثيرون ممَّن كان يُفترض بهم أن يحملوا الراية ويدافعوا ويحاربوا، لكنهم لم يفعلوا، فانتُزعت المهمَّة منهم وأُعطيت لأمَّة أخرى. الرب يريد جنودًا يعملون في ملكوته، لا متفرِّجين. الأمَّة اليهودية لم تُثمر فنالت عقابها، فكم بالحري نحن؟ إذًا، الأمر يحتاج إلى تعبٍ وجدٍّ

واجتهاد، "لَيْسَ أَنْتُمُ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ وَأَقَمْتُكُمْ لِتَذْهَبُوا وَتَأْتُوا بِثَمَرٍ وَيَدُومَ ثَمَرُكُمْ لِكَيْ يُعْطِيَكُمُ الآبُ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ بِاسْمِي" (يوحنا ١٥:١٦).

ويتكرَّر الحديث عينه في إنجيل متى، "إنَّ كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتَّكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السماوات، وأمَّا أبناء الملكوت فيُطرحون إلى الظلمة الخارجية..." (متى ٨: ١١ و١٢).

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ موضوع الخسارة بالنسبة للمؤمن المتجدِّد الذي أبى التجنُّد هي ليست خسارة للخلاص طبعًا، بل للبركات والتعزيات والأكاليل، هنا وفي الأبدية. أخبرنا لوقا في الإصحاح الثامن عشر من إنجيله عن بطرس الذي أتى إلى المسيح وقال له، "ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك" فأجابه يسوع: "الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَيْسَ أَحَدٌ تَرَكَ بَيْتًا أَوْ وَالِدَيْنِ أَوْ إِخْوَةً أَوِ امْرَأَةً أَوْ أَوْلاَدًا مِنْ أَجْلِ مَلَكُوتِ اللهِ، إِلاَّ وَيَأْخُذُ فِي هَذَا الزَّمَانِ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَفِي الدَّهْرِ الآتِي الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ" (لوقا ١٨:٢٩ و٣٠).

فالربُّ يرى عمل عبيده وجهدهم وهو يكافئ. لذا يجب أن لا نهتم بشيء بل نطلب ملكوت الله وبرَّه وكل الأمور الأخرى سيؤمِّنها ذلك الإله الجوَّاد الكريم.

وعليه فلنتشبَّه بمرقس ويسطس والآخرين الذين قال

الرسول بولس عنهم، "هَؤُلاَءِ هُمْ وَحْدَهُمُ الْعَامِلُونَ مَعِي لِمَلَكُوتِ اللهِ..." (كولوسي ٤:١١).

ولنجتهد في ملكوت الرب وننسى أيَّة قضية أخرى، ولنصرخ إليه قائلين: "تعال أيُّها الرب" (ليأتِ ملكوتك). وعندما تفعل ذلك أيها المَفدي، أَصغِ بخشوع وأطِع ذاك الصوت القائل في أعماقك: "إعمل في كرمي."

ثالثًا: ضرورة انتظار المملكة التي لا تزول

قد نمرُّ في صعاب وضيقات في هذه الحياة، وذلك أمر متوقَّع إذ إنَّ السيِّد سبق وأخبرنا بأنه سيكون لنا ضيق في هذا العالم. فالحياة غالبًا ما تضعنا تحت ضغوط، وقد يبدو لنا أنَّ بيلاطس هو الذي يملك وقيصر هو الذي يحكم، وأنْ لا عدل ولا حق، وأنَّ أبناء إبليس يعملون بنشاط ويزدهرون، لكن العتيد أن يدين الأحياء والأموات سيأتي، وعند ظهوره ستتبدَّل الأوضاع كلِّيًّا، وسيُقلب الدولاب. "... يقيم إله السماوات مملكة لن تنقرض أبدًا، وملكُها لا يُترك لشعب آخر، وتسحق وتُفني كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد" (دانيال ٢:٤٤).

ما أروعها حقيقة حيث تستريح قلوبنا ويطمئن بالنا إلى أنَّ الرب سيملك إلى الأبد ولن نخضع لأي ملك أو رئيس

سواه، هو وحده يبقى ويدوم. يُكمل دانيال فيخبرنا أنَّ قديم الأيام (المسيح) سيعطي الملكوت وعظمته للقدِّيسين. عندما يجلس على كرسي مجده، سيميِّزنا عن الآخرين، ويقول لنا: "تعالوا يا مباركي أبي رِثوا الملكوت المُعد لكم منذ تأسيس العالم" (متى ٢٥:٣٤). ما أبدعها كلمات تخرج من فم الحبيب، فتخرق نفوسنا، وتُنسينا كل التعب والمعاناة والإهانات في هذه الحياة. قد يزعجنا الأشرار الآن لكن حينما يأتي المسيح سيُنقِّي بيدره، وسيُظهِر حقَّنا مثل الظهيرة.

إنَّ الكتاب يعدنا بالنهاية السعيدة وبأمور مبهجة ومفرحة. "بَلْ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: "مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ: مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ"" (١كورنثوس ٢:٩). هناك لا دموع ولا حزن ولا بكاء، بل فرح وسلام مع الله. إذا كنا مُتعَبين حاليًّا، هناك سنُضيء كالشمس في ملكوت أبينا. طوبى للمؤمن الذي يتيقَّن من حقيقة النهاية المجيدة التي تنتظره.

عندما نقول له "ليأتِ ملكوتك"، لنقُل ذلك بصبر ولا بتذمُّر لأنه "إن كنَّا نصبر فسنملك أيضًا معه." إنَّ مَن يقول: "ليأتِ ملكوتك" وهو لم ينتقل من معسكر الظلمة إلى معسكر النور، يصلِّي لأجل نهايته الأليمة ويتضرَّع لأجل خاتمة حياته الحزينة.

لنقُل هذه الكلمات بثقة لكيما تُصبح هذه الوعود حقيقة ملموسة، وسيأتي الوقت الذي سنسمع فيه جميعًا هذه الكلمات "قَدْ صَارَتْ مَمَالِكُ الْعَالَمِ لِرَبِّنَا وَمَسِيحِهِ، فَسَيَمْلِكُ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ" (رؤيا يوحنا ١١: ١٥).